التفسير الموضوعي أصوله وضوابطه

د/ مصطفى أكرور
أستاذ محاضر بكلية العلوم الإسلامية
جامعة الجزائر

- التفسير الموضوعي هو جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن قضية أو موضوع واحد وتفسيرها مجتمعة واستنباط الحكم المشترك منها ومقاصد القرآن فيها، وقيل:هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر[1].

وظهر التفسير الموضوعي عند القدماء في وقت مبكر فقد نشأ في عهد النبوة ولا يزال إلى يومنا هذا، إلا أن مصطلح التفسير الموضوعي وإطلاقه على هذا الأسلوب من التفسير لم يظهر إلا في القرن الرابع عشر حيث ظهرت بوادر الاهتمام بهذا الموضوع وأيضا في مطلع هذا القرن. ولعل ذلك يعود أن استيعاب تفسير القرآن أمر عسير على أهل العصر لذا يتطلب جهدا متواصلا وزمنا طويلا وتفرغا قد لا يتأتى للكثير نظرا لظروف الحياة والعيش في هذا الزمان. ومع هذا لم يمنع من ظهور علماء قاموا بتقديم أعمال مضيئة في التفسير الشامل والتفسير الموضوعي منهم: الشيخ محمود شلتوت الذي فسر الأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم ثم أفرد آيات السلم بكتيب خاص.

ومنهم الأستاذ: محمد عزة دروزة في تفسير له "التفسير الحديث"، ثم أفرد الآيات القرآنية التي تتحدث عن سيرة النبي ﷺ على ضوء النصوص القرآنية وغيرهما كثير كما سيأتي بيانه إن شاء الله.

-أصول المنهج في التفسير الموضوعي:

لا يسوغ لأحد أن يقول في القرآن قولا بغير علم فلا يسوغ القول بالفقه والتفسير إلا لمن هو أهل لذلك؛ إذ الفقه فهم لكتاب الله، والتفسير كذلك، بيان لكتاب الله ولا يتأتَّى الحديث عن القرآن فقها أو تفسيرا إلا لأهل الاجتهاد والفقه والتفسير، والقول في تفسير الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد مثل القول في تفسير القرآن كله والقائل بهذا أو ذاك لابد له من شروط يجب استيفاؤها كما هو مبين في كتب القرآن أو في مقدمات كتب التفسير، ولا بد من اتباع أصول ومناهج معينة منها[2]:

1 – أن يكون عالما بالقرآن الكريم، ولا ضرورة أن يكون لكتاب الله حافظا بل يكفي الإحاطة بسور القرآن بوجه عام، وبآيات الأحكام بشكل خاص إذ هي التي تتعلق بالموضوع المراد بحثه ولا يكفي العلم بالقرآن بل لابد من معرفة للسنة النبوية وبيان العلاقة بينهما من عموم وخصوص وإطلاق وتقييد وإجمال وتفصيل وغير ذلك من الأبحاث التي استرقتها كتب الأصول[3].

إن العلم بالقرآن والسنة يعين الباحث في عملية جمع الآيات والأحاديث التي تتعلق بالموضوع المراد تفسيره.

أما الجمع للآيات والأحاديث فيتم بإحدى الطريقتين:

الأولى: استخراج مادة الكلمة من القرآن الكريم ولنفرض أن الموضوع المراد تفسيره هو الخمر، فإننا نبحث عن مادة الخمر في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أو ما يماثله من المعاجم فنجد هذه الآيات: وهي أولا:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾[4].

وآية: ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾[5].

وآية: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ ﴾[6]

وآية: ﴿ يَصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ ﴾[7].

بعد ذلك نتأمل في هذه الآيات في كتب التفسير، القديم منها والحديث، فنجد أن منها ما يكون محل استشهاد وبحث ومنها ما يجب استبعاده عن البحث، فخمر الدنيا يعتبر شربه رجسا في الدنيا وخمر الآخرة لذة للشاربين، ونحن إذ نتحدث عن خمرة الآخرة ونعيها هذه حالة نقبلها وتلك حالة أخرى نردها ولا يفوتنا ونحن نجمع الآيات أن نكون يقظين في جمع الآيات التي تتعلق بالموضوع المراد تفسيره ولكنها لم ترد فيها لفظة الخمر مثل آية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾[8].

فهذه الآيات وأمثالها ضرورية لاستكمال البحث في الموضوع وهي الأصعب في جمع الآيات لأن جمع الآيات من المعجم أمر ميسور فمجرد استخراج مادة الكلمة تجد جميع الآيات بين يديك ولكن جمع الآيات المتعلقة بالموضوع وليس بها مادة الكلمة يتطلب علما واسعا وحضور بديهة حين لبحث عنها فبعض المفسرين مثلا حين أراد أن يتكلم عن موضوع الخمر بدأه مثلا بالآية الكريمة وهي: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۗ ﴾[9].

أما الطريقة **الثانية** في الجمع فهي: اللجوء إلى الكتب الموسوعية التي تعتني بجمع الآيات المتعلقة بالموضوع مثل: "معجم الألفاظ للقرآن الكريم لمجمع اللغة العربية، وهناك كتاب باللغة الإنجليزية وهو: "تفصيل آيات القرآن الكريم"[10] لـ"جول لابوم ويليه" وكتاب المستدرك للأستاذ "أدوار مونتيه" وقد عربه عبد الباقي رحمه الله.

وهذه الطريقة تختصر إلى الباحث عملية الجمع إلى حد بعيد ولكنها غير وافية بالغرض تماما لأن بها إعوازا يحتاج إلى استكمال.

ثانيا: مراعاة أسباب النزول للآيات ومناسبتها

فبسبب النزول نستعين على توضيح الآيات أن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب كما يقول ابن تيمية رحمه الله[11].

وعدم الإطلاع على السبب يوقع، المفسر في مواقع الزلل الذي لا يزول بحال من الأحوال إلا بمعرفة سبب النزول لها مثال ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[12]

فإننا لو تركنا مدلول اللفظ لاقتضى أن المصلي لا يجب عليه استقبال القبلة لا سفرا ولا حضرا وهو خلاف الإجماع إذ لا يجوز لمسلم أن يصلي إلى أي جهة شاء بل لابد من استقبال القبلة مع وجود من يسأله. ولكن مدلول اللفظ القرآني، المجرد من سبب النزول يبيحه ولا يزيل هذا إلا المعرفة لسبب النزول بما رواه الإمام مسلم عن ابن عمر أنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه قال: وفيه نزلت ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ﴾[13]. وينبغي أن يكون المفسر على حذر ويقظة في التعامل مع أسباب النزول حين تتعدد الأسباب وتتعارض وحين يتعارض الصحيح مع الصحيح أو مع الضعيف وحين يكون مرجحا وهو بحث يستحق العناية ومازال فيه إعوازٌ كما قال الإمام السيوطي[14].

إن عدم الإطلاع على سبب النزول يوقع العالم - وإن سما علمه - في الارتباك في الفهم بل لقد وقع إشكال لأحد الصحابة ﷺ لعدم معرفته لسبب نزول الآية.

وروى مسلم عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قال: قلت لها: إني لأظن رجلا لو لم يطف بين الصفا والمروة ما ضره ذلك، قلت: ولم؟ قالت: إن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾[15].

فقالت: ما أتم الله حج امرئٍ ولا عمرته لم يطف بين الصفا والمروة ولو كان كما تقول لكان فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما وهل تدري فيما كان ذلك؟

إنما كان ذلك أن الأنصار كانوا يهلون في الجاهلية لصنمين على شط البحر يقال لهما: أساف ونائلة ثم يجيئون فيطوفون بين الصفا والمروة ثم يحلقون.

فلما جاء الإسلام كرهوا أن يطوفوا بينهما للذي كانوا يصنعون في الجاهلية قالت: فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية قالت: فطافوا[16].

أما مراعاة المناسبة فالبعض يخلط بين سبب النزول ومناسبته. بينهما فرق ولا شك أن السبب هو الذي من أجله نزلت الآية أو السورة أما المناسبة فليست كذلك إنما تهتم بوجه الربط بين بداية أية ونهايتها، وبين آية وآية، ونهاية سورة ببداية أخرى وغير ذلك من الأبحاث التي اعتنى بها بعض المفسرين مثل الإمام الكواشي في كتابه "التوجيه الجميل لأسرار التنزيل"[17]. ومن يقرؤه يجده اسما على مسمى إذ به دقة في الربط وشرح للمناسبة بتوجيه جميل كما قال.

وأكتفى بمثال ذكره الزركشي، والكواشي ليظهر لنا أهمية الحديث عن مناسبة من الآيات. فقد ساق الآية القرآنية ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[18]

فمن يقرأ هذه يتساءل أي ربط بين أحكام الأهلة وبي إتيان البيوت ؟ يقول الزركشي ((هذا من قبيل التمثيل لماهم عليه من تعكيسهم في سؤالهم وان مثلهم كمثل من يترك بابا ويدخل من ظهر البيت فقيل لهم: ليس البر ما أنتم عليه من تعكيس الأسئلة ولكن البر من اتقى ذلك)).

ثالثا: معرفة تاريخ أو زمن نزول الآيات، لأن إهمال التاريخ أحيانا يلبس علينا الموضوع فنقع في خلط واضطراب في القول، بل نقع في الحرام الذي لا شك فيه / فماذا لو أهملنا التسلسل التاريخي لنزول آيات الخمر مثلا فلو قلنا إن الآية القرآنية ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[19]

نزلت أولا ثم الآية التالية نزلت ثانيا: ﴿ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ لو قلنا ذلك لخرجنا بالقول التالي: إن الخمر كانت حراما ثم أصبحت مباحة في غير أوقات الصلاة وهذا الحكم باطل لاشك ولا يعصمنا من الوقوع فيه إلا معرفة زمن النزول وترتيب النازل ترتيبا تاريخيا.

وفي ذلك روى الطيالسي في مسنده عن ابن عمر قال: نزل في الخمر ثلاث آيات فأول شيء ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[20]. هذه الآية لم تحرم الخمر، ثم قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾

قالوا يا رسول الله لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم ثم نزلت ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾[21]. فقال رسول الله ﷺ: "حرمت الخمر"[22] إذن فمعرفة تاريخ النزول طريق العصمة في الفهم السليم.

ومن أهم الكتب التي يمكن الرجوع إليها كتاب لا غنى عنه بل هو من أوثق الكتب في هذه القضية بالذات وهو كتاب: "التفسير الحديث" للمرحوم: عزة دروزة النابلسي يقع في أثنى عشر مجلدا، لأن تفسيره هذا هو التفسير الوحيد الذي رتب على أساس تاريخ النزول فهو ترتيب تفسيري وليس ترتيبا قرآنيا فأول القرآن نزولا سورة العلق وليست في أول القرآن وأخر الآيات نوزلا قد ذكرت في سورة البقرة وهي في أول القرآن ذكرا.

رابعا: محاولة التوفيق بين الآيات الواردة في الموضوع والتي تبدو، لأول وهلة بأنها متعارضة، ولقد وضع العلماء[23] قواعد كثيرة في التعامل بين هذه النصوص فوضعوا قواعد لمحاولة التوفيق بين هذه الأدلة من ذاك أن نلجأ أولا: إلى إعمال النصوص كلها، فقالوا إن إعمال الأدلة خير من إهمالها من جميع الوجوه فإذا تعذر ذلك حاولنا الترجيح بين الأدلة والذي له أيضا قواعده وقد يختلف ذلك بين مجتهد ومجتهد، وأخيرا إذا تساوت الأدلة في القوة وتعارضت من كل وجه فان آخر العلاج الكي، فلا بد من إسقاط أحدهما بالنسخ كما سنبينه لاحقا إن شاء الله. نمثل على محاولة التوفيق بين النصوص في الآية القرآنية: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ

فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾[24]. فقد ورد في موضوع السلام وكذلك الآية الكريمة ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾[25].

وهي في نفس الموضوع، وقد يبدوا التعارض بين الآيتين وفعلا قد حكم بعض العلماء على أن الآية الكريمة قد نسخي الآية الأولى ومنهم من قال انه مهادنة الأعداء وان سألونا ومنهم من قال بالجواز.

والواقع أنه ليس بين الآيتين أي تعارض مطلقا ودعوى النسخ مر دورة أيضا ذلك أن كل آية تعالج حالة غير الحالة التي تعالجها الآية الأخرى فان كانت مصلحة المسلمين في الحرب حاربوا وان كانت مصلحتهم في السلم سالموا، فالآيتان محكمتان ولا تعارض بينهما فالعمل بهما أولى والملاحظ أن إعمال الأدلة يتجلى فيه قوة المفسر، فالتعامل مع الأدلة بإعمالها فيه سعة إطلاع وقدرة على التوفيق لا يستطيع إلا من أوتي علما وقدرة على استيعاب الأدلة كلها بخلاف الذي يلجإ إلى القول بالتعارض والنسخ فالقول بالنسخ وإسقاط أحد الأدلة لا يكلف تفكيرا ولا معاناة الجمع بين الأدلة بل قد يكون ذلك لا دلالة عليه من تقل ولا عقل.

خامسا: معرفة الناسخ والمنسوخ:

معنى النسخ: هو رفع حكم شرعي بدليل[26] شرعي متأخر ومن المتفق عليه أنه لا يجوز لمسلم أن يفسر كتاب الله دون معرفة ناسخه من منسوخه، فقد يقرر حكما ثم يتبين أن هذا منسوخ فيحرم العمل به لأن العمل بالمنسوخ باطل بعد ورود النسخ، وخير الأمثلة الجلية عليه ما ورد في سورة النساء ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾[27].

فقد نسختها الآية القرآنية من سورة النور: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[28].

وبهذا أصبح الزاني والزانية هو جلد مائة جلدة بعد أن كان الجزاء الحبي قي البيوت فلا يصح الاستشهاد بالآية الواردة في سورة النساء كعقوبة للزانية.

أنواع التفسير الموضوعي:

وينقسم التفسير الموضوعي إلى ثلاثة أنواع هي:

أولا: جمع الآيات القرآنية التي تتناول قضية واحدة بأساليب مختلفة عرضا وتحليلا وناقشة وتعليقا، وبيان حكم القرآن فيها.

والمفسر على هذا النحو يجعل همه الموضوع ذاته وما يؤدي إليه فلا يشغل نفسه بذكر الراءات ووجوه الإعراب، وصور البلاغة إلا بمقدار صلتها بالموضوع وما يخدم منه، وهذا النوع هو أشهر أنواع التفسير الموضوعي وأكثرها تأليفا ودراسة وإذا أطلق مصطلح التفسير الموضوعي فلا يكاد ينصرف الذهن الا إليه [29].

ثانيا: أن يتتبع الباحث كلمة من كلمات القرآن الكريم، ويجمع الآيات التي وردت فيها هذه الكلمة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، ثم يقوم بتفسيرها واستنباط دلالاتها واستعمالاتها القرآن الكريم لها. كما سبق لي وأن بينت ذلك.

وقد اهتمت بهذا الموضوع من التفسير كتب الأشباه والنظائر: إلا أنها وقفت عند حد بيان دلالة الكلمة في موضعها من غير ربط بين مواضع ورودها، واستعمالاتها في كل موضع فبقي تفسيرهم للكلمة في دائرة الدلالة اللفظية.

ثم اتسع هذا اللون من التفسير فتتبع المفسرون الكلمة وحاولوا الربط بين دلالتها في مختلف المواضع وأظهروا بهذه الطريقة معاني جديدة وألوانا من البلاعة ووجوها من الإعجاز القرآني، واستنبطوا دلالات قرآنية دقيقة لا تظهر بغير ذلك المسلك[30].

النوع الثالث: هو تحديد الموضوع الذي تتناوله سورة قرآنية واحدة ثم دراسة هذا الموضوع من خلال تلك السورة وحدها، ومن المعلوم أن لكل سورة من السور القرآنية شخصيتها المستقلة وأن لها هدفا واضحا ترمي إلى إيضاحه وبيان وإدراك

هدف السورة يكشف للباحث معاني دقيقة، ومناسبات لطيفة وصورا بليغة، وممن تميز تفسيره بالعناية ببيان مقاصد السور وأهدافها سيد قطب – رحمه الله تعالى- حيث التزم أن يقدم لكل سورة مقدمة يبين فيها أهدافها وينطلق في تفسيرها على هذا المحور مما أعطي تفسيره صيغة لا نكاد نجدها فيما سواه، هذا وسوف أسوق بعض الأمثلة التي تندرج تحت التفسير الموضوعي لتكون نماذج واضحة على وحدة الموضوع ووضوح المعنى.

المثال الأول: ما ورد في تفسير الإمام الفخر الرازي لقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[31].

قال: المسألة الثالثة: اختلفوا في أن إبليس هل كان من الملائكة؟ قال بعض المتكلمين، ولا سيما المعتزلون، انه لم يكن منهم، وقال كثير من الفقهاء انهه كان منهم، واحتج الأولون بوجوه:

أحدها: أنه كان من الجن، فوجب ألا يكون من الملائكة، وإنما قلنا انه كان من الجن لقوله تعالى في سورة الكهف ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾[32]واعلم أن من الناس من ظن أنه لما ثبت أنه كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة أن الجن جنس مخالفا للملك ، وهذا ضعيف، أن الجم مأخوذ من الاجتنان وهو الستر ولهذا سمي الجنين جنينا لاجتنائه ومنه الجنة لكونها ساترة، ولكونها مستترة بالأغصان، ومنه الجنون لاستتار العقل، فثبت أن هذا القدر لا يفيد المقصود، فنقول: أما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة لقوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ ﴾[33]. وهذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملك[34].

فالفخر هنا يستخدم المنهج الموضوعي في مناقشته للمشكلة فيستند إلى آيات القرآن من سور أخرى في إثبات أن إبليس كان من الجن أولا ثم في إثبات الفرق بين الجن والملك ثانيا.

المثال الثاني: نرد هذه الأمثلة من منهج التفسير الموضوعي لهذه الآيات التي تعرض إليها فضيلة الشيخ محمود شلتوت[35].

أ- في صدد الحديث عن قوله الله تبارك وتعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾[36].

نجده – رحمه الله – يعقد فصلا بعنوان "كلمة البر" في القرآن ومدلولها: ويقول فيه: وردت كلمة "البر" في مواضع متعددة من القرآن الكريم: منها هذه الآية ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾[37].

وقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾[38]. ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[39]. ﴿ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾[40].

وقد وصف الله عز وجل نفسه بأنه (هو البر الرحيم) ووصف الملائكة بأنهم (كرام بررة)

ووصف العباد المتقين بأنهم أبرار، والفاسقين بأنهم فجار: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾[41].

وجعل كتاب الأبرار في مقابلة كتاب الفجار، هذا في "سجين" وذاك في "عليين".

ومن هذا يتبين أن "البر" بالنسبة للعبد هو جماع الخير الذي يشمل المعاني النفسية والأخلاق الحسنة، وما ينشأ عنهما من أعمال صالحة طيبة يتقرب بها إلى ربه، وأما بالنسبة إلى الله فهو الثواب والرضا والمحبة والإلهية[42].

ب – كما نجده يتحدث عن النداءات الإلهية لجماعة المؤمنين في سورة آل عمران، ثم يعقد فصلا بعنوان: دلالة النداء من الله" ويقول فيه: ((لله سبحانه وتعالى نداءات كثيرة في القرآن الكريم وللنداء عامة دلالة على كمال العناية وعظيم الاهتمام بالمطلوب وبالمنادى وأمر ذلك في جميع اللغات معروف ومشهور، وقد نادى الله الأشخاص والطوائف والشعوب، ونادى الناس جميعا، ونادى أشياء مما خلق.))

ونداؤه للعقلاء أفرادا وجماعات نداء تكليفي يتضمن أمرا يطلب فعلا أو نهيا يطلب تركا، وأما نداؤه لغير العقلاء مما خلق، فهو نداء تكويني تصور به مطاوعة الكائنات لخالقها، وخضوعها لسنته، كما يخضع المنادى حين ينادي ممن فوقه، ومن هذا النوع الأخير: ﴿ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي ﴾[43]

﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾[44]. ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ ﴾[45].

وقد جاء نداؤه للعقلاء على أنواع:

نداء الأشخاص في القرآن

1- نداء الأشخاص بأسمائهم، وهذا النوع قد قصه علينا في كتابه بالنسبة لبعض الأنبياء السابقين، وناداهم بأسمائهم استنهاضا وتنبيها إلى خطر ما كلفوا به واصطفوا لأجله أو تهدئة لروعهم وتسكينا لأفئدتهم:

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ ﴾[46].

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾[47].

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴾[48]

2- نداء بالوصف الذي يحدد المهمة ويبعث على القيام بها وعدم التأثر بشيء قي سبيل أدائها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾[49].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾[50].

وهما خطابان لمحمد ﷺ ولم يوجد في القرآن خطاب له بوصف الرسالة سوى هذين، وقد ناداه بوصف النبوة في مواضع متعددة... النداء بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ و﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾.

3- وكما نادى الأشخاص على النحو الذي ذكرنا، نادى الناس جميعا مرة بوصف الإنسانية العامة، ومرة بوصف النبوة للأب الأول، والذي نلاحظه هنا أن النداء بوصف الإنسانية كان أكثره فيما يختص بالأصول العامة للدين، من الإيمان بالله والوحي، والرسالة والإيمان باليوم الآخر، وما يرجع إلى شيء من هذين:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[51].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ﴾[52].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾[53].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ ﴾[54].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾[55]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾[56].

وأما نداؤهم بوصف النبوة لآدم، فقد وجه إليهم تحذيرا من مكايد الشيطان الذي وقع فيها أبوهم من قبل: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا ﴾[57].

ووجه إليهم امتنانا على نوعهم بما يميزهم الله به، عن سائر الحيوان من لباس يستر العورة وريش يتزينون به.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾[58].

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ﴾[59].

ج – وفي صدد الحديث عن قول الله تبارك وتعالى ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[60].

يعقد فصلا بعنوان: الوزن والميزان: مواردهما في القرآن وما يراد بهما.

يقول فيه ((أما الوزن، فقد دلت عليه الآية التالية لآية السؤال- ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾والوزن:[61]عمل يعرف به قدر الشيْ، وقد وردت مادة الميزان والوزن في كثير من آيات القرآن الكريم وبتتبع مواضعها نستطيع أن نردها إلى الأحوال الآتية:

جاءت كلمة الميزان، وكذلك كلمة الوزن مقترنتين بالكيل فيما يجري بين الناس عادة من تبادل وبيع وشراء، ويراد منهما في هذا المقام الحث على إقامة القسط بين الناس في التعامل، وقد كان أول قوم وجه إليهم هذا الحث، فيما نعلم، قوم شعيب وجه في تبليغ رسالة الله وتحذيرهم من سوء المعاملة عن طريق بخس الكيل والميزان أو عن طريق التطفيف فيهما، وقد جاء في هذه السورة نفسها.

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾[62].

وجاء في سورة من القرآن، عرفت باسم سورة المطففين، قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[63].

ومن لبين أن المراد بالميزان والوزن في هذا المقام، الآلة التي يتواضع عليها الناس ويعرفون بها مقدار ما يأخذون وما يعطون، وهي الآلة المعروفة باسم الميزان[64].

وقد جاءت الكلمتان أيضا مقترنتين يذكر الخلق والتكوين.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾[65].

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[66].

ومن البين أن المراد في هذا المقام بكلمتي الوزن والميزان، ما يرجع إلى إحكام النظام وتقدير الخلق وربط الكائنات يسنن من التناسب والاعتدال.

وقد جاءت الكلمتان أيضا مقترنتين بالكتاب الذي أنزله الله وأرسله مع رسله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾[67].

وقوله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[68]

وبذلك كانت سنة الله في كونه وبنائه على الوزن والأحكام كسنته ونظامه في شرعه، فكما أحكم الكون بالميزان، أحكم الشرع بالميزان.

وأخيرا جاءت الكلمتان: الوزن والميزان – في القرآن الكريم- مقترنتين بالأعمال في يوم الحساب... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ﴾[69].

وقوله: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[70].

وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾[71]وهذا هو الميزان الذي يبنى عليه الحساب الأخروي ويقع بناء عليه أما العذاب وأما النعيم[72].

ولا شك أن المؤلفات في التفسير الموضوعي قد كثرت في العصر الحديث وأصبحت المكتبة القرآنية تزخر بالمؤلفات فيه فهو ميدان خصب للباحثين.

ولخدمة الباحثين في هذا الموضوع فقد اتجهت العناية إلى جمع الآيات القرآنية وترتيبها حسب موضوعاتها وذلك كما فعل الأستاذ المرحوم الشيخ محمود شلتوت في تفسيره للأجزاء العشرة الأولى من القرآن الكريم.

وقد بدأ ذلك بإصدار رسالتين بعنوان: القرآن والمرأة، وكان ذلك نواة لما يسمى بالتفسير الموضوعي الشامل للكتاب الكريم كله، والذي نعتقد أننا في حاجة ماسة إليه في عصرنا الحاضر، ولا يظن أحد أننا يذلك نحط من شأن المنهج التقليدي في التفسير، فإننا نؤمن بأنه لابد منه للمتخصصين في علوم القرآن الكريم، لأن ترتيب آياته توقيفي وعلينا أن نحاول أن نفهم ونشرح للناس أن هذا الترتيب بالرغم من تنوع الموضوعات التي يتناولها أي جزء من القرآن – متناسق بشكل ملحوظ.

ولعل إمكان تفسير القرآن بكل من الطريقتين الموضوعية والتقليدية – نوع من أنواع الإعجاز الذي تفرد به دون سائر الكتب فليس هناك – غير القرآن الكريم – كتاب يشتمل سياقه على موضوعات متعددة دون أن يفقد سلاسته، ودون أن يشعر القارئ له بفجوات بين الآية وما تليها.

وليس هناك كتاب غير القرآن الكريم يمكن أن تجمع بعض أجزائه المتناثرة لتكون موضوعا متكاملا[73].

والتفسير الموضوعي للقرآن هو القدر على الوفاء بمقتضيات المنهج الاجتماعي وليس التفسير الطولي، ونعني به تفسير القرآن جزءا بعد جزء، حزبا بعد حزب، سورة بعد سورة، آية بعد آية،لفظا وراء لفظ حرفا اثر حرف، من ابتداء الفاتحة والبقرة إلى سورتي الفلق والناس وظهر عند القدماء بدايات للتفسير الموضوعي وذلك مثل، التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، ومجاز القرآن لأبي عبيدة، ومفردات القرآن للراغب الأصفهاني، والناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس وأسباب النزول للواحدي، كما ظهر عند المعاصرين كثير من هذه الموضوعات دون تحليل شامل لآيات القرآن وبنائها في أكثر ما كتب عن النظم المعرفية في الإسلام، وملكية الأرض، وأحكام الربا وما إلى ذلك.

ولم تقتصر جهود العلماء على الجوانب اللغوية للكلمات القرآنية، بل جمعوا الآيات التي تشترك في موضوع واحد أو قضية واعدة كما سبق وأن ذكرت

وذلك كالنسخ والقسم والمشكل والأمثال وغيرها فجمعوها ثم تناولوها من الجانب المراد.

ونجد" التفسير الموضوعي" في صور متعددة عند القدماء منها:

تفسير القرآن بالقرآن:

إذ أن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد وتفسير بعضها ببعض هو أعلى درجات التفسير الموضوعي وأعظمها ثمرة وأكثرها فضلا، وكان أسبق الناس الى ذلك رسول الله ص فقد كان يفسر لأصحابه القرآن بالقرآن والأمثلة على ذلك كثيرة.

فقد روى البخاري[74] ((أن رسول الله ص فسر مفاتيح الغيب في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[75] فقال: مفاتح الغيب خمس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[76]. [77].

وأدرك ذلك الصحابة رضوان الله عليهم فقد كانوا يجمعون الآيات المتشابهة ويفسرون بعضها ببعض فن أشكل عليهم تفسيرها رجعوا إلى الرسول ﷺ فبينه لهم، وهناك فرق بين التفسير الموضوعي، والتفسير المقارن، فهذا الأخير يعمد المفسر فيه إلى الآية أو الآيات فيجمع ما حول موضوعها من نصوص قرآنية أو نصوص نبوية التي تشمل الأحاديث، وسوار أكانت هذه النصوص أقوالا للصحابة أو التابعين أو الكتب السماوية الأخرى، ثم يقارن بين هذه النصوص ويوازن بين الآراء ويستعرض الأدلة، ويبين الراجح وينقض المرجوح، وبهذا يظهر أن مجال هذا الأسلوب أوسع، وميدانه أفسح وأن له وجوها متعددة للمقارنة، منها:

1 – المقارنة بين نص قرآني، ونص قرآني آخر اتفاقا أو ظاهره الاختلاف.

ومن هذا النوع: علم تأويل مشكل القرآن[78]، وقد تكون المقارنة بين النصين القرآنيين لإبراز معاني لا يوصل إليها أحد النصين إذ أن أحدها مكمل للآخر،

وقد يظهر ذلك جليا في جانب القصص القرآني حيث أن جمع نصوص القصة الواحدة في القرآن يؤدي إلى تكامل القصة وترابط الأحداث.

وفضلا عن أن المفسر يستنبط الأسباب ويكشف عن الأسرار والحكم التي من أجلها كان الاختلاف بين التعبيرين، والمغايرة بين الأسلوبين، مرة وبأخرى تارة، وبصيغ مختلفة،

2 – المقارنة بين نص قرآني وحديث نبوي يتفق مع النص القرآني أو ظاهره الاختلاف كذلك، ويبحث العلماء ذلك في المؤلفات في مشكل القرآن ومشكل الحديث أيضا.

3 – وقد تكون المقارنة بين نص قرآني، وبين نص في التوراة، أو نص في الإنجيل لإظهار فضل القرآن ومزيته، وهيمنته على الكتب السابقة والمؤلفات على هذا الأسلوب أيضا كثيرة وأغلبها حديث مثل:

القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم "لموريس بوكاي" وكتاب محمد في التوراة والإنجيل والقرآن " للأستاذ: إبراهيم خليل وغير ذلك.

4 – وقد تكون المقارنة بين أقوال المفسرين، حيث يستطيع آراء المفسرين في الآية الواجدة مهما اختلفت مشاربهم وتعددت مذاهبهم، ويذكر أدلة كل قول وحججه، ويناقش الأقوال، وينقد الأدلة ويرجح ما يراه راجحا ويبطل ما يرى بطلانه، وأحسب أن من أقدم المفسرين الذين سلكوا هذا المسلك هو إمام المفسرين الطبري حيث جرى على ذكر أقوال أهل التأويل في كل آية ثم يذكر أدلة كل قول، ويقارن بينها، ويرجح أحدها ويضعف ما يرى ضعفه.

ويظهر التباين جليا بين المفسرين – من حيث الاتجاهات والمناهج، فمنهم من التزم في تفسيره بالتفسير بالمأثور والنقل عن أئمة السلف والالتزام بمنهج أهل السنة والجماعة ومنهم من التزم بمناهج المذاهب الأخرى ومنهم من أفسح لنفسه فتوسع في التاريخ والقصص ومهم من اعتنى بالبلاغة ووجوه البيان

ومنهم من توسع كثيرا في آيات الأحكام، ومنهم من اعتنى بالآيات الكونية والتفسير العلمي ومنهم من استطرد في المسائل النحوية ومنهم من توسع في علم الكلام والفلسفة ومصطلحات الصوفية... وما إلى ذلك، وهذا اللون من التفسير وان جمع بين مناهج عدة يسمى بالتفسير التحليلي الذي يعتمد على وحدة الآية[79].

ولعل إمكان تفسير القرآن الكريم بكل هذه الطرق والاتجاهات هو نوع من أنواع الإعجاز الذي تفرد به هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد – دون سائر الكتب ولذلك قال النبي ﷺ : ((ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله أمن عليه البشر، وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)) [80].

قال ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: ((ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه للعادة في أسلوبه، وفي بلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر به أنه سيكون، يدل على صحة دعواه، فعم نفعه من حضر ومن غاب، ومن وجد، ومن سيوجد)) [81].

وعلم الله هو العلم الشامل المحيط الذي لا يعتريه خطأ ولا يشوبه نقص وعلم الإنسان محمود، يقبل الازدياد ونعرض للخطأ.

ونصوص الوحي قد نزلت بألفاظ جامعة فقد قال ﷺ: ((بعثت بجوامع الكلم)) [82]. مما يدل على أن النصوص التي وردت عن النبي ﷺ تحيط بكل المعاني الصحيحة في مواضعها التي قد تتابع في ظهورها جيلا بعد جيل.

وختاما لهذا الموضوع أود أن أسجل بعض النقاط الأساسية التي تتعلق بالتفسير الموضوعي.

1 – إعطاء الأولوية للموضوعات التي تلبي حاجة العصر مثل: الأرض، المال، الفقر، الغنى، التقدم، التخلف، الأمة، العمل، الإنسان، بحيث يتحول وجداننا المعاصر إلى نظريات وتصورات قادرة على تحليل أزمات العصر.

2 – تحليل المعاني وتصنيفها في مجموعات رئيسية حتى يمكن بناء الموضوع والتمييز بين المعاني الرئيسية والمعاني الفرعية.

3 – التفسير يكون بالمعنى والقصد وليس بالحرف واللفظ، فالوحي مقاصد كما يقول علماء الأصول، وبواعث واتجاهات وأهداف كما يقول المحدثون فللكليات الخمس، المحافظة على النفس والعقل والدين والعرض والمال هي مقومات الحياة الخمس، فالمصلحة أساس الشرع ((لا ضرر ولا ضرار))[83] و((الضرورات تبيح المحظورات)) و((الأصل في الأشياء الإباحة)).

4 – التفسير بالتجارب الحية التي يعيشها المفسر، فالتفسير جزء من الحياة، والحياة مادة علم التفسير، ولا تفسير إن لم يكن لدى المفسر تجارب يعيش حياته ويحياها بصدق.

وعليه فعلى المفسر أن يتحرى الصدق والصواب وأن يخلص نيته لله في تبيين الحق للناس من أجل هدايتهم وأن يعلم خطورة ما يتناوله ويعبر عنه فهو عندما يقول: هذا المعنى هو الذي يشير إليه قوله تعالى، فهو يفسر كلام رب العالمين، لذا يجب عليه أن يتذكر دائما قول النبي ﷺ: ((من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار))[84].

كما ينبغي أيضا أن يتَّصف المفسر أو الباحث بالصبر مع توفر الكفاءة العلمية المكتسبة حتى يميز الحق من الباطل ويقبله ويلتزم بالموضوعية ومعناها هنا: حصر المعلومات ودراستها من غير تحيز لفكرة أو رأي سابق مع التقيد بالمنهج العلمي في التوثيق والاقتباس والإحالات[85].

المصادر والمراجع:

1- الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي دار المعرفة الطبعة الرابعة 1978م.

2- أسباب النزول أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري الواحدي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة سنة 1959م.

3- إعجاز القرآن. محمد بن الطيب الباقلاني القاهرة 1963م

4 - البرهان في علوم القرآن: محمد بن عبد الله الزركشي

تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة الطبعة الثانية دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان.

5- الجامع الأحكام القرآن محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي دار الكتب القاهرة 1938م ط1

6- التفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي دار الكتب الحديثة القاهرة 1961م.

7- تاريخ القرآن أبو عبد الله الزنجاني ط3 – مؤسسة الأعلمي بيروت 1969م.

8- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني .

9 – لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي.

10- مباحث في علوم القرآن د/ صبحي الصالح الطبعة 7 دار العلم للملايين بيروت 1972م

11- معاني القرآن يحي بن زياد القراء الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة- 1966م.

12- مناهل العرفان في علوم القرآن محمد عبد العظيم الزرقاني دار إحياء الكتب العربية القاهرة

الهوامش:

(1) مباحث في التفسير الموضوعي د/ مصطفى مسلم:16

(2) وقد فصل ابن تيمية في رسالته تفصيلا حسنا انظر ص38 من رسالة ابن تيمية.

(3) راجع لمحات في علوم القرآن – محمد الصباغ ص139

(4) البقرة 219. وانظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د/ مصطفى السباعي ص124

[5] محمد151

[6] يونس 36 وانظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم- وضعه فؤاد عبد الباقي تقديم الأستاذ د/منصور فهمي مطابع الشعب معجم غريب القرآن مستخرج من صحيح البخاري محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء الكتب العربية تصدير محمد حسين هيكل سنة 1950

[7] يوسف: 41

[8] النساء: 43

[9] النحل: 67

[10] طبع الكتاب في دار الكتاب العربي بيروت 1969 انظر: لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير محمد الصباغ ص226 وكتاب: من التفسير الموضوعي د/ أحمد إبراهيم ص 141والتفسير والمفسرون د/ الذهبي(1/ 148- 151) وكذلك كتاب خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم د/محمد رجب البيومي ص 12.

[11] مجموع الفتاوى 3/13. وأسباب النزول للواحدي ص42.

[12] البقرة: 115. راجع صفوة التفاسير للصابوني ج1 ص73. والموافقات للشاطي2/ 201.

[13] البقرة 115.

[14] الإتقان في علوم القرآن للسيوطي 38/1 وما بعدها وأسباب النزول للواحدي ص4، وطبقات المفسرين للسيوطي، ومعجم المفسرين 352/2.

[15] البقرة 158.

[16] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه 928/2، كتاب الحج باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به عن عائشة.

وأخرجه ابن ماجة في سننه 2/ 994- 995.

[17] كتاب المناسك- باب السعي بين الصفا والمروة عن عائشة، راجع أسباب النزول للواحدي دراسة وتحقيق/ السيد الجميلي ص 47.

[18] البقرة: 189.

[19] المائدة: 90.

[20] البقر 219. انظر: السنن الكبرى للبيهقي 285/8 الحاكم للمستدرك 4/ 141، وزاد المسير لابن الجوزي 417/2.

[21] المائدة: 90.

[22] رواه البخاري 30/10 في الأشربة باب نزول تحريم الخمر وباب من رأى أن يخلط البسر تمرا وباب خدمة الصغار والكبار وفي تفسير سورة المائدة باب قوله تعالى: (إنَّما الخمر والميسر) ومسلم رقم 1980 في الشربة باب تحريم الخمر. والإمام مالك في الموطأ 846/2 في الأشربة باب جامع تحريم الخمر وأبو داود رقم 3673 في الأشربة باب تحريم الخمر.

[23] كتب الأصول مثل - كتاب الأحكام في أصول الأحكام للآمدي وكتاب المحصول في علم الأصول للرازي.

[24] الأنفال:15 راجع جامع البيان للطبري 24/10، الدر المنثور للسيوطي 199/3وزاد المسير 356/3.

[25] محمد: 35 راجع تفسير ابن كثير 320/2. ونواسخ القرآن لابن الجوزي ص 747.

[26] أصول الفقه للشيخ أبي زهرة:185 ومباحث في علوم القرآن د/مناع القطان ص:232.

[27] النساء: 15 راجع الأحكام للآمدي 1664/2، والمستصفى للغزالي 10/1. المعتمد لأبي الحسين البصري 392/3.

[28] النور 2.

[29] مباحث في التفسير الموضوعي د/ مصطفى مسلم ص 27

انظر أيضا: دراسات في التفسير الموضوعي ص46 واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر د/ فهد عبد الرحمن الرومي 862/3. والنهج البياني في تفسير القرآن د/كامل سعفان ص5.

[30] ومن المؤلفات على هذا النوع من التفسير:

المصطلحات الأربعة في القرآن: الإله، الرب العبادة، الدين لأبي الأعلى المودودي.

كلمة "الحق" في القرآن الكريم للشيخ محمد بن عبد الرحمن الراوي.

(الحمد) في القرآن الكريم د/ محمد محمد خليفة.

تـأملات حـول وسـائل الإدراك في القـرآن الكـريم (الحـس، والعقـل، والقلـب، واللـب، والفـؤاد) للدكتور محمد الشرقاوي.

(31) البقرة: 34، وراجع: زاد المسير لابن الجوزي(64/1).

(32) الكهف: 50.

وانظـر: التفسـير الموضـوعي- د/ أحمـد إبـراهيم ص67، مطبوعـات مجمـع البحـوث الإسلامية- المكتبة العصرية- بيروت، 1971م.

(33) سبأ: 40.

(34) مفاتيح الغيب للرازي- (313/2).

(35) تفسير القرآن الكريم- محمود شلتوت ص:80،79.

(36) البقرة: 177.

(37) البقرة: 189، وانظر: الدر المنثور للسيوطي(173/1)، البحر المحيط(3/2).

(38) المائدة: 2، تفسير ابن كثير(6/2)، زاد المسير لابن الجوزي(277/2).

(39) البقرة: 44، مفاتيح الغيب للرازي(48/3).

(40) المجادلة: 9، وراجع: تفسير القرطبي(294/7)، مختصر تفسير ابن كثير(463/3).

(41) الانفطار: 14، وانظر: صفوة التفاسير للصابوني(829/3).

(42) من تفسير القرآن الكريم لفضيلة الشيخ: محمود شلتوت ص:79- 80.

(43) هود: 44، وانظر: تفسير القرآن الكريم للشيخ شلتوت ص 79- 80- ط- 1966- دار القلم القاهرة.

(44) الأنبياء:69.

(45) سبأ: 10، وراجع التفسير الموضوعي- أحمد إبراهيم ص27.

(46) مريم: 12.

(47) سورة ص: 26، وانظر: أضواء البيان للشنقيطي (25/7).

[48] القصص: 31، وراجع: تيسير الكريم الرحمن للشيخ عبد الرحمن ابن ناصر السعدي(13/6).

[49] المائدة:67، انظر: الدر المنثور للسيوطي(398/2)، تفسير ابن كثير(78/2).

[50] المائدة: 41، تفسير الطبري(304/10)، سنن البيهقي(246/8)).

[51] البقرة: 21، وانظر: زاد المسير لابن الجوزي (47/1)، صفوة التفاسير (51/1).

[52] النساء:01، وانظر: مفاتيح الغيب للرازي (164/5).

[53] النساء: 170، وانظر: مجاز القرآن للزجاج (143/1)، جامع البيان للطبري (415/9).

[54] الحج: 5، وراجع: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (6/12)، صفوة التفاسير للصابوني (444/2).

[55] فاطر: 15، وانظر: البحر المحيط لأبي حيان(307/7)، تفسير القرطبي (4343/14).

[56] الحجرات: 13، وانظر: مختصر تفسير ابن كثير للصابوني (397/3).

[57] الأعراف: 27، وانظر: تفسير الطبري (390/12)، زاد المسير لابن الجوزي(184/3).

[58] 59الأعراف: 31، وانظر: تفسير القرطبي(189/7)، صفوة التفاسير للصابوني(691/1).

[59] الأعراف: 26، وانظر: الكشاف للزمخشري(97/2)، معاني القرآن للفراء(375/1)، تفسير الطبري (364/12).

[60] الأعراف: 6،8، وانظر: تفسير الطبري(12/ 4،30)، زاد المسير لابن الجوزي (169/3).

[61] تفسير القرآن الكريم، محمود شلتوت ص: 113، ببعض التصرف.

[62] هود: 84، وراجع: تفسير القرطبي(85/9)، صفوة التفاسير (42/2).

[63] المطففين: 1، 6، وانظر: البحر المحيط(440/8).

[64] تفسير القرآن الكريم- الأجزاء العشرة الأولى لشيخ الأزهر محمود شلتوت ص 465 وما بعدها، وانظر: التفسير الموضوعي د/ أحمد ابراهيم ص32.

[65] الرحمن: 7، وانظر: زاد المسير لابن الجوزي (105/8- 106).

[66] الحجر: 15.

(67) الشورى: 42، وراجع: تيسير الكريم الرحمن للشيخ عبد الرحمن السعدي ص 100- مؤسسة مكة- سنة 1398ه.

(68) الحديد: 25، وانظر: صفوة التفاسير للصابوني (516/3).

(69) الأعراف: 07، وراجع: في ظلال القرآن لسيد قطب. (516/3).

(70) الأنبياء 47، وانظر: تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور - (82/17-83)، الدار التونسية للنشر- سنة 1979م.

(71) سورة القارعة: 6- 9 التفسير الكبير للرازي (72/31)، تفسير أبي السعود(282/5).

(72) تفسير القرآن الكريم- محمود شلتوت- ص: 465.

(73) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر د/ فهد بن عبد العزيز (983/3)، التفسير: معالم حياته، منهجه اليوم- أمين الخولي ص 35- 44، الفكر الديني في مواجهة العصر – عفت الشرقاوي ص 443.

(74) صحيح البخاري: كتاب التفسير(193/5)، صحيح ابن حبان (69/1- 70)، مجمع الزوائد(263/8).

(75) سورة الأنعام: 59، وانظر: البحر المحيط لأبي حيان (146/4)، في ظلال القرآن لسيد قطب (247/7)، تفسير القرطبي (5/7)، تفسير بن كثير (474/6)، تفسير الطبري(401).

(76) سورة لقمان/34.

(77) الحديث أخرجه البخاري(396/8) في تفسير سورة لقمان- باب قول الله تعالى: (إنَّ الله عنده علم الساعة)، وكذا في تفسير سورة الأنعام باب (وعنده مفاتح الغيب)

(78) انظر مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب القيسي (ت 137ه)، طبع في مجلدين بتحقيق الدكتور حاتم الضامن، وكذا البيان في غريب القرآن لأبي البركات بن الأنباري (ت 577ه)، طبع في مجلدين بتحقيق طه عبد الحميد.

(79) دراسات في التفسير الموضوعي: د/ أحمد جمال العمري ص: 46: وراجع: الإتقان في علوم القرآن (120/1- 133)، نزهة العيون النواظر لابن الجوزي ص 83، جامع البيان

للطبري(564/2- 565)، طبقات المفسرين للداودي(114/2)، طبقات المفسرين للسيوطي ص 96، مذاهب التفسير الإسلامي- جولد تسيهر- ترجمة د/ عبد الحليم النجار ص 109.

(80) رواه البخاري (5/9) في فضائل القرآن- باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل، وفي الاعتصام- باب قول النبي ﷺ: «بعثت بجوامع الكلم». ومسلم رقم 152 كتاب الإيمان- باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ

(81) فتح الباري لابن حجر: ج9 ص:7.

(82) أخرجه البخاري، ومسلم في المساجد برقم 5423- والترمذي في السير برقم 1553، وانظر: معالم السنن للخطابي(7/7).

(83) قال النووي حديث حسن رواه ابن ماجة والدار قطني وغيرهما مسندا. انظر الجامع الصحيح رقم: 7393، والإرواء:888.

(84) أخرجه الترمذي رقم 2951 في التفسير- باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم 2069، وفي رواية: «من قال في كتاب الله عز وجل برأيه فأصاب فقد أخطأ». رواه أبو داود رقم 2652 في العلم، باب الكلام في كتاب الله بغير علم

(85) كتابة البحث العلمي صياغة جديدة للدكتور: عبد الوهاب أبو سليمان ص: 19، 20.